بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السادس

٩ / ٤ / ١٤٤٠

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]، فدلَّ هذا علىٰ أنه إذا ثبت لله ولرسوله ﷺ في كلِّ مسألةٍ من المسائل حُكْمٌ طلبيٌّ أو خبري، فإنّه ليس لأحدٍ أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه، وأنّ ذلك ليس لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ أصلًا، فدلَّ علىٰ أنّ ذلك منافٍ للإيمان.

وقد حكىٰ الشافعيُّ رضي الله عنه إجماع الصحابةِ والتابعين ومَن بعدَهم، علىٰ أنَّ من استبانت له سنَّةُ رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدَعها لقول أحد.

ولا يستريبُ أحدٌ من أئمةِ الإسلام في صحَّةِ ما قال الشافعيُّ رضي الله عنه، فإنّ الحجة الواجب اتباعها علىٰ الخلق كافةً إنما هو قول المعصومِ الذي لا ينطق عن الهوىٰ، وأمّا أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغةَ الاتباع لا واجبةَ الاتِّباع، فضلًا عن أن تُعارَض بها النُّصوص وتُقدَّم عليها، عياذًا بالله من الخذلان.

الحمد لله رب العالمين، وأشهدُ ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد.. فلا يزال الإمامُ ابن القيم رحمه الله تعالىٰ يذكر في هذا الفصل المتعلق بالهجرة إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام، تأسِّيًا واتباعًا واقتداءً، لا يزالُ يذكر رحمه الله الأدلة من القرآن علىٰ هذه الهجرة، التي هي اتِّباعُ الرسول عليه الصلاة والسلام، ولزومُ منهجِه القويم ﷺ.

وهذا الدَّليل الثالث من هذه الأدلَّة، قول الله ﷻ في سورة الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ وهذه الآية واضحة في بيان المقصود هنا، الذي هو طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام، والتقيّد بما جاء عنه، وألا يكون المرء في هذا الباب انتقائيًّا، يأخذ منها ما أراد ويترك ما لم يُرد؛ بل الواجب عليه أن يُسلِّم تسليمًا، وأن ينقادَ انقيادًا تامًّا لكل ما جاء عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي: ليس لهم في هذا الذي جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام خِيَرَة، أن يتخيَّر المرءُ لنفسه بأن يأخذ مثلًا بعضًا ويترك بعضًا، يقبل بعضًا ويردّ بعضًا، ليس له ذلك؛ بل الواجب أن يُتلقَّىٰ كلُّ ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام بالقَبول والتسليم.

وهذا كما أشار أيضًا الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: في الأمور الطّلبية والأمور الخَبرية، في الحكم الطلبي والحكم الخبري.

الحكم الطلبي: الذي هو الأوامر والنواهي والشرائع والتكاليف.

والأمور الخبرية: العقائد، وكل ما جاء عن النبي ﷺ من أخبار.

فإنّ كلَّ ذلك يؤمَن به بلا تردد، وكل ما جاء عنه من أوامر يُعمل بها، ونواهي تُجتَنب، هذا حال المسلم مع ما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا مقتضىٰ شهادة ألا إله إلا الله، طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، والانتهاء عمَّا نهىٰ عنه وزجر، وألا يُعبد الله إلا بما شرع.

قال: (في كل مسألةٍ من المسائل حكمٌ طلبي أو خبري)، سواءٌ كان الحكم حكمًا طلبيًّا أو كان الحكمُ حكمًا خبريًّا، (فإنه ليس لأحدٍ أن يتخيَّر لنفسه) في (ذلك الحكم، فيذهب إليه)، وإنَّما الواجب أن يُتلقَّىٰ كل ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام بالقَبول، فالأخبار تُتَلقَّىٰ بالتَّصديق، والأوامر تتلقىٰ بالامتثال والانقياد لِما جاء عنه صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

قال: (فدل علىٰ أن ذلك منافٍ للإيمان)، لأنه قال الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ فإذا لم يمتثل هذا المضمون الذي دلّت عليه هذه الآية فإنّ هذا منافٍ للإيمان.

ثم نقل هذا النقل العظيم عنِ الإمام الشافعي رحمةُ الله عليه، قال أنه حكىٰ (إجماع الصحابة والتابعين ومَن بعدهم علىٰ: أنّ مَن استبانت له سُنة رسول الله ﷺ، لم يكن له أن يدعها لقولِ أحد)، وهذا الإمام ينبغي أن يُعرف بإمامته وفضله، وعلوِّ مكانته ورفعة شأنه نُصرةً للدِّين، وإحياءً لسنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، وهو من الأئمة الفحول الكبار المجتهدين، وله رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ كتابات عظيمة في الأصول المتعلِّقة بالاجتهاد وضبط هذا الأمر ضبطًا قويمًا، حتىٰ لا يتسنّم هذا الأمر من ليس أهلا له، وإنما هذا الأمر له رجاله، ولهذا في زماننا هذا يكثر عند أصحاب الأفكار والآراء التطاول علىٰ هذا الإمام بالذات رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، وعلىٰ مقامه العلي الرفيع، لماذا؟ لأن الأصول التي أصّلها في ضبط الاجتهاد الضَّبط القويم، واعتنىٰ بها عناية دقيقة تقطع الطريق علىٰ هؤلاء، في اجتهادهم المُنفلت الضائع، الذي مبني في كثيرٍ منه علىٰ تحقيق الأهواء، والرَّغبات، والمطامع، والتفلُّت من النصوص.

ولهذا يقول القائل من هؤلاء: هو مجتهد، وخالفَ بعض الأئمَّة قبله، ونحن نجتهد مثل ما اجتهد! فهذا الإمام – أعني الشَّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ – ينبغي أن تُدرك إمامتُه ومكانتُه ومنزلتُه العليَّة الرفيعة، وأن يُعرف فضله والجهد العظيم الذي بذله في التأصيل والتَّقعيد في ضبط الأمور.

ومن هذا هذه الكلمة العظيمة: ليس لأحدٍ استبانت له سنة النبي ﷺ، ليس له أن يدعها لقول أحدٍ كائنا من كان، وعنه نقولات عظيمة في هذا المعنىٰ تجدونها في آخر كتاب «معارج القَبول» للشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، نقل نُقولًا كثيرة عن هذا الإمام خاصة؛ الشَّافعي، ويوجد عن غيره من الأئمة نقولات، لكن هذا الإمام علىٰ وجه الخصوص له تميُّز عظيم جدًّا في التأصيلات والقواعد التي أصّلها وقرَّرها وبيّنها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ، وهي كما قلت تقطع الطَّريق علىٰ أهل الاجتهاد المنفلت الضائع، المبني في كثيرٍ منه علىٰ الأهواء والمُيولات والرَّغبات وما إلىٰ ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مؤكدًا ما قاله هذا الإمام: (ولا يستريبُ أحدٌ من أئمةِ الاسلام في صحَّةِ ما قال الشافعي) رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ؛ لأنَّ الحق أحق أن يُتبع، والسُّنة إذا استبانت وظهَرت ليس للمرء أن يتكلّف ردَّها لا لشيءٍ إلا لهوىٰ والعياذ بالله في نفسه، أو ميول أو شيءٍ نشأ عليه، فيبدأ يتكلَّف في رد النَّص الواضح، ويتكلف في دفعه ليًّا وإعراضًا، مثل ما تقدم في كلام الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ليس لأحد أن يكون كذلك؛ بل الواجب أن يُسَلِّم، والإمام الشافعي له كلمة عظيمة في هذا يقول: إذا صح الحديث فهو مذهبي.

ولهذا بعض المسائل التي اجتهد فيها، وقرر فيها حُكما رَحِمَهُ ٱللَّهُ، جاء بعض أتباعه فيما بعد وقرروا فيها قولًا غير الذي قرره الشافعي، ثم يقولون: وهذا هو مذهب الشافعي، أخذًا من قوله: إذا صح الحديث، قالوا: وقد صح الحديث وهو مذهب الشافعي.

فانظر هذه المتانة في العلم، وهذا الارتباط الوثيق بسنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، حتىٰ القول الذي يصل إليه بالاجتهاد والتحرّي والتدقيق، قد يكون بلَغَه الحديث في هذا الباب من طريق ضعيف، فلم يأخذ به، فيقول: إن صح الحديث فهو مذهبي، وهذا من التعظيم لسنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، بخلاف من تصحّ الأحاديث وتستبين دلالتها ثم يتكلف ردَّها.

والعجيب في الأمر أن يُسمّىٰ مثل هذا التكلُّف في رد الأحاديث اجتهاد، ويقولون: هم رجال ونحن رجال، نجتهد مثل ما اجتهدوا، أولئك اجتهدوا في تعظيم السنة وتحرِّي الحق، والدعوة للاتباع، وهؤلاء يجتهدون في تكلُّف رد الحق الثابت عن الرسول ﷺ، فشتَّان بين الطريقين، وبونٌ شاسعٍ بين المسلكين.

قال: (فإن الحجة الواجب اتباعها علىٰ الخلق كافة إنما هو قول المعصوم) ﷺ (الذي لا ينطق عن الهوىٰ، وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع لا واجبة الاتباع، فضلًا عن أن تعارض بها النصوص وتقدم عليها عياذًا بالله من الخذلان).

❖

وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ

وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ [النور]، فأخبر سبحانه أنّ الهداية إنّما هي في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنّه معلقٌ بالشرط، فينتفي بانتفائه، وليس هذا من باب دلالة المفهوم، كما يغلط فيه كثيرٌ من الناس، ويظن أنّه يحتاج في تقرير الدَّلالةِ منه إلىٰ تقرير كون المفهوم حُجّة؛ بل هذا من الأحكام التي رُتِّبَت علىٰ شروط وَعُلِّقت، فلا وجود لها بدون شروطها، إذ ما عُلِّق علىٰ الشرط فهو عدمٌ عند عدمه، وإلا لم يكن شرطًا له، إذا ثبت هذا فالآيةُ نصٌّ علىٰ انتفاء الهداية عند عدمِ طاعته.

هذا الدليل الرابع قول الله ﷻ في سورة النور ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي: الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ قال ابن القيم: (فأخبر سبحانه أنَّ الهداية إنَّما هي في طاعة الرسول لا في غيرها)، انتبه لقوله: (لا في غيرها)، فإنّ الحديث الآتي عن هذه الكلمة، (الهداية إنما هي في طاعة الرسول، لا في غيرها)، أخذًا من قوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ﴾ فـ ﴿إِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ﴾ هذا فيه أنَّ الهداية إنما هي حَصرًا في طاعته، إنما هي حصرًا في طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام، (فإنه مُعلّق بالشرط، فينتفي بانتفائه)، عُلِّقَ الاهتداء بشرطِ الطاعة، فإن انتفت انتفىٰ، إن انتفت الطاعة انتفىٰ الاهتداء؛ لأن الاهتداء معلق بها، (فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتفائه)، (وليس هذا من باب دلالة المفهوم، كما يغلط فيه كثير من الناس)، لأنّ الألفاظ لها دلالتان كما هو معلوم: دلالة منطوق ودلالة مفهوم، دلالة المنطوق: هي المعنىٰ المستفاد من اللفظ من حيث النطق به، ودلالة المفهوم: المعنىٰ المستفاد من اللفظ من حيث السكوت اللازم للّفظ.

فيقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ليس هذا من باب دلالة المفهوم)، لأنّ مثل ما عرفنا الدلالة: دلالة منطوق ودلالة مفهوم، فما دل عليه اللفظ منطوقًا من حيث النطق به هذا يقال عنه دلالة منطوق، وإذا كان يُفهم من اللفظ يُسمىٰ دلالة مفهوم، يعني مثلا لو قيل: إن تُذاكر تنجح، هذا فيه منطوقا: أنّ النجاح مرتبط بالمذاكرة – هالأيام اختبارات! – منطوقًا: أنّ النجاح بالمذاكرة، إن تذاكر تنجح، لو قال قائل: هذا يدل أيضًا علىٰ أن الذي لا يذاكر لا ينجح، صحيحة ولا غير صحيحة؟ صحيحة، منطوقا أو مفهومًا؟ كل أحد يفهم هذا؟ هذه تسمىٰ دلالة مفهوم، وهي دلالة صحيحة معتبرة، ولهذا كثير من الأحكام تؤخذ من دلالة المفهوم، الآن لما قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣]، عندما يقول قائل: هذه الآية تدل علىٰ عدم جواز ضرب الوالدين، أو لعن الوالدين والعياذ بالله، أو نحو ذلك، الدلالة صحيحة أو لا؟ من باب أولىٰ، إذا كان لا يُقال: أف، فهذه أشد من أف! فهي من باب أولىٰ وأحرىٰ.

فدلالة المفهوم دلالة صحيحة، لكن ابن القيم هنا ينبه علىٰ لطيفة عظيمة جدا، يقول: إن قوله في الآية

(﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ أنّ الهداية إنما هي في طاعة الرسول لا في غيره)، لماذا؟ لأنه (معلق بالشرط)، هو الآن يتحدث عن قول: (لا في غيره)، لأن الآن إذا قلنا: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ فيها منطوقا أنّ من أطاع الرسول ماذا؟ اهتدىٰ، لكن هل من أطاع غير الرسول لا يهتدي؟ يقول ابن القيم: نَصَّ الآية في ذلك، الآية تعد نصًّا في ذلك، ليس مفهومًا، نصًّا في ذلك، لأنه علّقَ الهداية بشرط الطاعة، فإن لم توجد الطاعة انتفت الهداية، فلن تُحَصّل في طاعةِ غيره صلواتُ الله وسلامه عليه.

ولهذا من كان بعيدا عن الاستجابة والطاعة للرسول عليه الصلاة والسلام فهو بعيد عن الهداية ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ انتبه للآية ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ الأمر ارتبط بعدم الاستجابة، فإذا لم تكن استجابة للرسول، فالمرء مُتَّبِع لهواه، ومن كان متبعا لهواه فهو ماذا؟ ضال ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠].

قال: (وليس هذا من باب دلالة المفهوم كما يغلط فيه كثير من الناس، ويظن أنه يحتاج في تقرير الدلالة منه إلىٰ تقرير كون المفهوم حُجة؛ بل هذا من الأحكام التي رُتِّبت علىٰ شروط وعُلِّقت، فلا وجود لها بدون شروطها، إذا ما عُلِّق علىٰ الشرط فهو عدمٌ عند عدمه، وإلا لم يكن شرطا له).

وفي إعادة الفعل في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور:٥٤] دون الاكتفاء بالفعل الأول سرٌّ لطيف وفائدةٌ جليلة، سنذكرها عن قربٍ إن شاء الله تعالىٰ.

دون الاكتفاء بالفعل الأول، يعني لم يقل: (قل أطيعوا الله والرسول) اكتفاء بالفعل الأول ﴿أَطِيعُواْ﴾ بل أعاد الفعل عند ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ يقول: هذا له (سر لطيف وفائدة جليلة) سيأتي ذكرها قريبًا عنده رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ الفعل للمخاطَبين، وأصله تتولَّوا، فحُذفت إحدىٰ التاءين تخفيفا، والمعنىٰ: أنه قد حُمِّل أداء الرسالة وتبليغها، وحُمِّلتم طاعته والانقياد له والتسليم، كما ذكر البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحه» عن الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: مِن الله البيان، وعلىٰ رسوله البلاغ، وعلينا التسليم.

نعم، ما أجمل نقل كلام الزهري محمد بن شهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الموطن، الله جل وعلا يقول لعموم المخاطبين ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ كلٌّ مسؤول عن الشيء الذي حُمِّل، حُمِّلَ الرسول عليه الصلاة والسلام البلاغ ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [النور:٥٤] بلَّغَ البلاغ المُبين، ما ترك خيرًا إلا دلَّ الأمةَ عليه، ولا شرًّا إلا حذَّرها منه، بلَّغ ونصح وأدىٰ الأمانة عليه الصلاة والسلام وافية.

﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ حملتم الاتباع، والاقتداء والاهتداء بهديه عليه الصلاة والسلام، قال الزهري: (من الله الرسالة، وعلىٰ الرسول البلاغ، وعلينا التسليم)، (علىٰ الرسول البلاغ) هذا الذي حُمل، وأداه وافيا عليه الصلاة والسلام، ولم يمت حتىٰ أنزل الله في ذلك تنصيصا وتبيينًا ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣]، (وعلينا التسليم): حُملنا هذا، أن نسلّم وننقاد، ونمتثل أوامر الرسول عليه الصلاة والسلام.

فإن تركتم أنتم ما حُمِّلْتُموه من الإيمان والطاعةِ، فعليكم لا عليه، فإنه لم يُحمّل طاعتكم وإيمانكم، وإنما حُمل تبليغكم وأداء الرسالة إليكم، فإن تطيعوه فهو حظُّكم وسعادتُكم وهدايتكم، وإن لم تطيعوه فقد أدىٰ ما حُمِّل ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤﴾ ليس عليه هداكم وتوفيقكم.

(إن تركتم أنتم ما حُمِّلتم من الإيمان والطاعة فعليكم لا عليه)، لأنّ الذي عليه أدّاه، حُمِّل البلاغ، وقد بَلّغ، «**لا أُلفِيَنَّ**» في «صحيح البخاري»، لما ذكر الغلول وعظّم أمره قال: «**لا ألْفَينَّ أحدكم يوم القيامة [يأتي و]علىٰ رقبته شاةٌ لها ثُغاء، فيقول: يا رسول الله أغثني! فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك**» إلىٰ آخر الحديث [صحيح البخاري ومسلم]، ذكر أشياء وفي كلٍ يقول «**قد أبلغتك**» فالذي عليه أدّاه، بلّغ عليه الصلاة والسلام البلاغ، الذي حُمِّل أدّاه.

﴿وَعَلَيۡكُم﴾ أي: معاشر المخاطبين ﴿مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ وهو الاتباع، أنتم مسؤولون عن ذلك ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾ [القصص]، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ [النساء:٦٤]، حُملتم الطاعة والاتباع لهذا الرسول عليه الصلاة والسلام، (فإنه لم يُحمَّل طاعتكم وإيمانكم) ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ [البقرة:٢٧٢]، ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾ [النحل:٣٧]، هذا بيدِ الله ﷻ، حُمّل البيان والبلاغ وقد أدىٰ ذلك، (حُمّل تبليغَكم وأداء الرسالة إليكم، فإن تُطيعوه فهو حظكم وسعادتكم وهدايتكم، وإن لم تطيعوه فقد أدىٰ ما حُمل) صلوات الله وسلامه عليه.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء]، فأمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله، وافتتح الآيةَ بندائهم باسم الإيمان المُشعرِ بأنّ المطلوب منهم من موجبات الاسم الذي نودوا وخوطبوا به، كما يُقال: يا من أنعم الله عليه وأغناه من فضله؛ أحسن كما أحسن الله إليك، ويا أيها العالم علِّم الناس ما ينفعهم، ويا أيها الحاكم احكم بالحق، ونظائرُه، ولهذا كثيرا ما يقعُ الخطاب في القرآن بالشرائع

بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ [الجمعة:٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [المائدة:١].

ونظائرُه، ففي ذلك إشارةٌ إلىٰ أنكم إن كنتم مؤمنين، فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا، فإنه من موجبات الإيمان وتمامه.

هذه الآية الخامسة من الآيات التي ساقها رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الفصل، وهي قول الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فأمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله، وافتتح الآية بندائِهم باسم الإيمان، المُشعر بأنّ المطلوبَ منهم من موجبات الإيمان الذي نودوا وخوطِبوا به)، فهذه النداءات – وهي كثيرة في القرآن – المُفتَتَحة بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ثم يُذكر أمر من الأوامر أو نهي من النواهي، تصديرُ الآية بهذا النداء بهذا الوصف الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مُتَضَمِّنٌ أنّ هذا الذي تُنادَون للقيام به من مقتضيات إيمانكم، مثل الأمثلة التي ذَكَر: (يا من أنعم الله عليه وأغناه من فضله أحسن)، يا من علّمه الله العلم ورزقه العلم علِّم، يعني هذا مقتضىٰ العلم الذي عُلمتَه، ومن مقتضىٰ الخير الذي رُزقته، فكذلك النداءات التي في القرآن المُصدرة بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ هذا يتضمن أنَّ هذا الذي تُنادىٰ أيها العبد للقيام به فعلا أو تركا، هو من مقتضياتِ الإيمان، قال: (ففي ذلك إشارة إلىٰ أنكم إن كنتم مؤمنين، فالإيمان يقتضي منكم كذا وكذا، فإنه من موجبات الإيمان وتمامه)، فهذه الآية فيها أنَّ من مُقتضيات الإيمان أن تطيعوا الله، أن تطيعوا الرسول عليه الصلاة والسلام.

ثم قال تعالىٰ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ ففرّقَ بين طاعته وطاعة رسوله في الفعل، ولم يسلط الفعلَ الأولَ عليها، وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾، فقرنَ بين طاعةِ الرسول ﷺ وطاعةِ أولي الأمر، وسلط عليهما عاملًا واحدا، وقد كان ربما يسبق إلىٰ الوهم أنّ الأمر يقتضي عكس هذا، فإنّ من يطع الرسولَ فقد أطاع الله، ولكنَّ الواقع في الآية هو المناسب، وتحتَه سرٌّ لطيف، وهو دلالتُه علىٰ أنّ ما يأمرُ به رسوله تجبُ طاعته فيه، وإن لم يكن مأمورا به بعينه في القرآن، فتجبُ طاعة الرسولِ مفردةً ومقرونة، فلا يتوهم متوهمٌ أنّ ما يأمرُ به الرسولُ إن لم يكن في القرآن، وإلا فلا تجب طاعته فيه، كما قال النبي ﷺ: «**يوشك رجلٌ شبعانُ متكئ علىٰ أريكته يأتيه الأمر من أمري، فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، ما وجدنا فيه من شيء اتبعناه، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه**».

نعم قوله: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ هنا مثل ما ذكر ﷻ تعالىٰ، كرر الفعل ولم يكتفِ بالفعل الأول، لم يقل (أطيعوا الله والرسول) وإنما كرر الفعل، وهذا التَّكرار للفعل فيه سرٌّ لطيف نبّه عليه ﷻ تعالىٰ وكان قد وعد قريبًا أن يبينه، وهذا موطن بيانه، فهذا سر يقول: (فيه سر لطيف، وهو دلالته علىٰ أنَّ ما يأمر به) الرسول عليه الصلاة والسلام (تجب طاعته فيه وإن لم يكن مأمورا به بعينه في القرآن)، فإذن تفيد الآية، وإعادة الفعل ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ تفيد أنَّ ما يأمر به عليه الصلاة والسلام يُطاع فيه استقلالًا، حتىٰ وإن لم يكن مأمورا به في القرآن، لأنّ الله ﷻ أمر بطاعته استقلالًا ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فلا يقل قائل: هذا الذي أمر به الرسول عليه الصلاة والسلام لم أَرهُ في القرآن! الله قال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ استقلالًا فيما يأمر به، حتىٰ وإن لم يكن في القرآن، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أوتيتُ» ماذا؟ «القرآن ومثله معه»، التي هي السنة فقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فيه أنه عليه الصلاة والسلام يُطاع فيما يأمر به، (تجب طاعة الرسول مفردة ومقرونة)، (مفردة): يعني في أحاديث جاءت فيها أوامر لم تُذكر في القرآن، أو (مقرونة): في أحاديث جاء ما يدل عليها في القرآن، هذا يطاع وهذا يطاع، يطاع فيه صلوات الله وسلامه عليه.

(فلا يتوهم متوهم أنّ ما يأمر به الرسول) ﷺ، (إن لم يكن في القرآن وإلا فلا تجب طاعته فيه)، ولهذا تُعدّ هذه الآية من أبلغ ما يُرد به علىٰ من يزعمون أنفسهم أنهم أهل القرآن أو قرآنيون، لا يعملون إلا بالقرآن، الله جل وعلا يقول في القرآن ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فأين هم من العمل بالقرآن إذا لم يعملوا بقول الله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾؟ له طاعة استقلالًا، حتىٰ لو لم يكن ما ذكره أو أمر به، حتىٰ وإن لم يكن موجودًا في القرآن، علىٰ أنّ كل ما أمر به عليه الصلاة والسلام جاء الأمر في القرآن بالأخذ به ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧].

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «يوشكُ رجلٌ شبعان متكئ علىٰ أريكته»، «شبعان متكئ علىٰ أريكته» هذه تفيد ماذا؟ سبق أن أشرت إلىٰ معنىٰ هنا، أظن مر معنا في معارج القَبول «شبعان متكئ علىٰ أريكته» ليس مشتغل بالعلم، العلم يحتاج نشاط وهمة وذهاب وطلب وبحث ورحلة إلىٰ آخره، وهذا جالس متكئ علىٰ أريكته يأكل ويشرب ولا عنده اشتغال بالعلم أصلًا، متفرغ للاتكاء والأكل، ثم يأتيه الحديث ويقول: هذا لم أجده في القرآن فلا آخذ به، «يوشك رجلٌ شبعان متكئ علىٰ أريكته يأتيه الأمر من أمري فيقول: بيني وبينكم كتاب الله»، خلَّك متكئ علىٰ أريكتك ومالك ولهذه الأمور، اتكِئ وكُلْ ولا تشتغل بهذا «بيني وبينكم كتاب الله، ما وجدنا فيه من شيء اتبعناه، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه»، أي: التي هي السنة، فهذا المعنىٰ «ومثله معه»، الآية واضحة في تقريره في قوله جل وعلا: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

وأما أولو الأمر فلا تجب طاعة أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول، لا طاعة مفردة مستقلة، كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «علىٰ المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يُؤمر بمعصية الله، فإن أمر بمعصية [الله] فلا سمع ولا طاعة» [صحيح البخاري ومسلم].

في ﴿أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ لم يكرر الفعل، لم يقل: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأطيعوا أولي الأمر) لماذا؟ يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لأنه (لا تَجب طاعةُ أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول، لا طاعة مُفردة مستقلة)، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**لا طاعة لمخلوق في**» ماذا؟ «**معصية الخالق**» [صحيح الجامع].

۞۞

فتأمل كيف اقتضت إعادة هذا المعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ولم يقل (وإلىٰ الرسول) فإنّ الرد إلىٰ القرآن ردٌّ إلىٰ الله والرسول، والرد إلىٰ السنة رد إلىٰ الله والرسول، فما يحكم به الله هو بعينه حكم رسوله، وما يحكم به الرسول هو بعينه حكم الله.

نعم، لأنّ الرسول مهمتُه إبلاغُ كلام من أرسله ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة:٩٩]، لا يأتي بشيء من قِبل نفسه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم]، فمُهمته إبلاغ من أرسله، فطاعته هي بعينها طاعةُ الله، والامتثال لحكمه هو بعينه امتثال حكم الله، لأنه مبلِّغ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

۞۞

فإذا رددتم إلىٰ الله ما تنازعتم فيه - يعني إلىٰ كتابه - فقد رددتموه إلىٰ الله ورسوله، وكذلك إذا رددتموه إلىٰ رسوله فقد رددتموه إلىٰ الله والرسول، وهذا من أسرار القرآن.

وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمدَ في ﴿أُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ فعنه فيهم روايتان:

إحداهما: أنهم العلماء، والثانيةُ: أنهم الأمراء.

والقولان ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية، والصحيحُ أنها مُتناوِلة للصنفين جميعا، فإنّ العلماءَ والأمراء هم ولاة الأمر الذي بعث الله به رسوله، فالعلماء ولاتُه حفظًا، وبيانًا، وبلاغًا، وذبًّا عنه، وردًّا علىٰ من ألحد فيه وزاغ عنه، وقد وكلّهم الله بذلك فقال تعالىٰ: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ۝٨٩﴾ [الأنعام]، فيا لها من وكالةٍ أوجبت طاعتهم، والانتهاء إلىٰ أمرهم، وكون الناس تبعًا لهم.

والأمراء وُلاتهم قياما ورعايةً وجهادًا وإلزامًا للناس به، وأخذِهم علىٰ يد من خرج عنه، وهذان الصنفان هم الناس، وسائر النوع الإنساني تبع لهم ورعية.

هذا تقريرٌ منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في معنىٰ قوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ من هم؟ هل هم العلماء؟ أو الأمراء؟ من هم أولو

الأمر في قوله: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ﴾ هل هم العلماء؟ أو الأمراء؟ قال: (اختلفت الرواية عن الإمام أحمد فعنه فيه روايتان)، وقال: (والقولان ثابتان عن الصحابة)، يعني في معنىٰ الآية، منهم من قال: الأمراء، ومنهم من قال: العلماء، كلا القولين مأثور عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في تفسير الآية، (والصحيح أنها متناولة للصنفين جميعا)، كلٌّ منهم ولاة أمر، العلماء والأمراء، هؤلاء ولاة أمرٍ في باب، وهؤلاء ولاة أمر في باب آخر، العلماء ولاة أمر في حفظ الدين وبيانه وبلاغه والذب عنه والرد علىٰ من ألحد، هذه مهمة العلماء، وولاة الأمر الأُمراء، ولاةُ أمر من حيث القِيام علىٰ نُصرة الدين ورعايته، والجهاد في الذب عنه وإلزام الناس به، ولهذا جاء في الأثر: إنّ الله يَزَعُ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. [قاله عثمان بن عفان، والمصدر: «الكامل في اللغة والأدب»] (وأخذِهم علىٰ أيدي من خرج عنه)، فهذان الصنفان هم ولاة الأمر، العلماء والأُمراء، العلماء مثل ما قال وأورد الآية في الحفظ والبيان والبلاغ وقد وكّلهم الله بذلك، وكّلهم الله بالحفظ والبلاغ والبيان، وكّلهم واستدل علىٰ ذلك بالآية ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمَا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩﴾.

﴿وَكَّلۡنَا﴾ يقول ابن القيم: (فيا لها من وكالةٍ أوجَبت طاعتهم والانتهاء إلىٰ أمرهم، وكون الناس تبعا لهم)، لأن الله قال: ﴿وَكَّلۡنَا﴾ وقصد بهؤلاء العلماء، وهنا مسألة أُشيرُ إليها، وهي فائدة نبّه عليها ابن القيم: هل يستقيم أن يُقال عن العالِم استنادًا إلىٰ قوله: ﴿وَكَّلۡنَا﴾ وكيل الله؟ هل يستقيم أن يُقال: العالِم وكيلُ الله؟ والدليل ﴿وَكَّلۡنَا﴾؟ ذكر ابن القيم في كتابه رَحِمَهُ اللَّهُ «مفتاح دار السعادة» فائدة حول هذه المسألة، قال: لا يلزم من إطلاقِ فِعل التوكيد المقيد بأمرٍ ما، أن يُصاغَ منه اسم فعل مطلق، هذا ينطبق علىٰ قوله: ﴿وَكَّلۡنَا﴾ لا يؤخذ منه وكيل الله، أيضا ينطبق علىٰ قوله: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:١٢٩]، ما يقال خليفة الله! يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يلزم من إطلاق فعل التوكيد المقيد بأمرٍ ما، أن يصاغ منه اسم فعل مطلق.

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء:٥٩] وهذا دليلٌ قاطعٌ علىٰ أنه يجب ردُّ موارد النزاع في كل ما تنازع فيه الناس من الدين كله إلىٰ الله ورسوله، لا إلىٰ أحد غير الله ورسوله، فمن أحال الرد علىٰ غيرهما فقد ضاد أمر الله، ومن دعا عند النزاع إلىٰ تحكيم غير الله ورسولِه فقد دعا بدعوىٰ الجاهلية، فلا يدخلُ العبد في الإيمان حتىٰ يَرُدّ كل ما تنازع فيه المتنازعون إلىٰ الله ورسولِه، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ وهذا مما ذكرناه آنفًا أنه شرطٌ ينتفي المشروط بانتفائه، فدل علىٰ أنّ من حكّم غير الله ورسولِه في موارد النزاع كان خارجا عن مقتضىٰ الإيمان بالله واليوم الآخر، وحسبُك بهذه الآية القاصِمة العاصِمة بيانًا وشفاءً، فإنها قاصمةٌ لظهور المخالفين لها، عاصمةٌ للمتمسكين بها، الممتثلين لما أمرت به ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ

﴿٤٢﴾ [الأنفال].

هذا وصف بليغ لهذه الآية، قال: (العاصمة القاصمة)، عاصمة لقوم وقاصمة لآخرين، هذه الآية (عاصمة للمتمسكين الممتثِلين)، من يردّون النزاع إلىٰ الله والرسول عليه الصلاة والسلام، و(قاصمة لظهور المخالِفين) لها ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾.

وقد اتفق السلف والخلف علىٰ أنّ الردَّ إلىٰ الله هو الردُّ إلىٰ كتابه، والردُّ إلىٰ رسوله ﷺ هو الردُّ إليه في حياته، والردُّ إلىٰ سنتِه بعد وفاتِه.

ثم قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: هذا الذي أمرتُكم به من طاعتي وطاعة رسولي وأولي الأمر، وردِّ ما تنازعتم فيه إليّ وإلىٰ رسولي، خيرٌ لكم في معاشكم ومعادكم، وهو سعادتكم في الدارين، فهو خيرٌ لكم وأحسنُ عاقبة، فدلَّ هذا علىٰ أنَّ طاعة الله ورسولِه وتحكيم الله ورسوله هو سبب السعادة عاجلا وآجلا.

هذا الكلام الآتي عظيم جدًّا، حقيقة جدير بالتأمل جيدًا، كلام عظيم ومتين وفيه أيضا نُصْح رَحِمَهُ اللهُ.

ومن تدبّر العالَم والشُّرور الواقعةَ فيه، علم أنّ كُل شرٍّ في العالم فسببه مخالفةُ الرسول ﷺ، والخروج عن طاعته، وكل خير في العالمِ فإنما هو بسبب طاعةِ الرسول ﷺ، وكذلك شرورُ الآخرة وآلامُها وعذابها إنما هي موجبات مخالفة الرسول ﷺ ومقتضياتُها، فعاد شرُّ الدنيا والآخرة إلىٰ مخالفة الرسول ﷺ وما يترتب عليه، فلو أنّ الناس أطاعوا الرسول ﷺ حق طاعته لم يكن في الأرض شرٌّ قط.

وهذا كما أنه معلوم في الشرور العامة والمصائب الواقعة في الأرض، فكذلك هو في الشر والألم والغم الذي يصيب العبد في نفسه، فإنما هو بسبب مخالفة الرسول ﷺ، وإلا فطاعته هي الحصن الذي من دخله فهو من الآمنين، والكهف الذي من لجأ إليه فهو من الناجين.

فعُلم أن شرور الدنيا والآخرةِ إنما هي الجهلُ بما جاء به الرسول ﷺ والخروجُ عنه، وهذا برهانٌ قاطعٌ علىٰ أنه لا نجاة للعبد ولا سعادة إلا باجتهاده في معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علمًا، والقيام به عملا.

وكمال هذه السعادةِ بأمرين آخرين:

أحدهما: دعوة الخلق إليه.

والثاني: صبره وجهاده علىٰ تلك الدعوة.

فانحصر الكمالُ الإنسانيُّ في هذه المراتب الأربعة:

إحداها: العلم بما جاء به الرسول ﷺ.

الثانيةُ: العمل به.

الثالثةُ: بثُّه في الناس ودعوتهم إليه.

الرابعةُ: صبره وجهاده في أدائه وتنفيذه.

نعم، واجتمعت هذه الأربعة في سورة العصر، قول الله ﷻ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر] فهذه الأمور الأربعة التي ذكر هنا رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ، وهي الموجبة للسعادة والنجاة من الخسران، فلا يسعد إلا من كان كذلك، ولا يسلم من الخسران إلا من كان كذلك، من أهل هذه الأوصاف العظيمة في هذه السورة الوجيزة البليغة، بهذا وصفها عمرو بن العاص: الوجيزة البليغة، وجيزة في لفظها بليغة في دلالتها، لأنها أحاطت بموجبات السعادة والفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة، وأنها بهذه الأمور الأربعة.

والإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ جاء عنه أنه قال: لو تدبر الناس هذه الآية لكفتهم، فيها كفاية لأنها بليغة وعظيمة، في جمعها مع وجازة ألفاظها لأسباب السعادة والفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة، وعلىٰ ذكر الشافعي أعود مرة أخرىٰ، الشافعي يقول: إذا صح الحديث فهو مذهبي، وبعض من يزعم الاجتهاد الآن يُبَيِّنْ له أنّ الحديث الذي استدل به حديث موضوع فلا يرجع، يبين له أن الحديث الذي قد استدل به علىٰ مسألةٍ ما حديثٌ موضوع، أو لا يصح، أو قصة غير صحيحة، لا يرجع عن ذلك، فانظر الفرق بين من يعظِّمون السنة وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن هو في وادٍ آخر غير وادي هؤلاء الأئمة الأجلاء النبلاء رحمهم الله.

ومن تطلَّعت همته إلىٰ معرفة ما كان عليه الصحابة وأراد اتباعهم فهذه طريقتهم حقا.

نعم هذه طريقة الصحابة وهذا مسلكهم، ومن كان علىٰ الأثر فهو علىٰ الطريق، أي: علىٰ الطريق الصحيح القويم الموصل إلىٰ رضوان الله ﷻ وجنّته.

فإن شئت وصْل القوم فاسلك طريقهم ... فقد وضحت للسالكين عِيانا

الطريق واضحة، وبيِّنة، ومعالمُها ظاهرة، (فإن شئتَ وصل القوم فاسلك طريقَهم)، اسلك المَسْلك الذي سلكوه، وجاهد نفسكَ علىٰ أنْ تأتسيَ بهم وأن تلزمَ غرزهم وأن تنهجَ نهجَهُم، لتكون ممن قال الله فيهم ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التوبة:١٠٠] فإنما يكون ذلك بلُزوم نهجِهم، وسلوكِ مسلكِهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ الدليل السادس من أدلة هذا الفصل، نؤجل الحديث عنه إلىٰ لقائنا القادم.

نسأل الله أن ينفعنا أجمعين بِما علَّمنا وأن يزيدَنا علما وتوفيقا، وأن يصلِح لنا شأننا كله، وألا يكِلَنا إلىٰ أنفسنا طرفةَ عين، اللَّهُمَّ اغفر لنا ووالدينا ووالديهم وذرياتهم والمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياءِ منهم والأموات، اللَّهُمَّ اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا بهِ جنتك، ومن اليقينِ ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا، اللَّهُمَّ متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا علىٰ من ظلمنا، وانصرنا علىٰ من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا.

سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، اللَّهُمَّ صل وسلم علىٰ عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.